## لقمان الدويبات

قال ارسطوطاليس « يُرى على نهر هيپانيس[1] ( Hypanis ) دويبات لا تعيش الاَّ يوماً واحداً [2]، فالتي تقضي نحبها في الساعة الثامنة من الصباح تُختضَر، والتي تطوي بساط ايامها في الساعة الخامسة من المساء، تموت هرماً . »

وقف أحد كتَّاب الافرنج على هذا القول الذي نقله شيشرون، فكتب فصلاً يتدفق زلاله حكمةً رائعة، فجاريناه فيهِ فوضعنا هذه الاسطر التالية :

لنفرض انَّ ذكراً من ذكور هذه الدويبات الهيپانيـة عمَّر نهاراً واحداً لمئانة بنيتهِ، واندماج خلقهِ، وتوثيق آرابه، أي انهُ وُلد مع انبثاق الفجر؛ ثم قضى عمره عاملاً بنشاطٍ وهمة وكدٍّ وجدٍّ، مدة الثواني العديدة

---

(١) كان يطلق اسم نهر هيپانيس في السابق على نهرين في اوربة البربرية : أحدهما يُعرف اليوم باسم « كوبان » ويخرج من كوه قاف، ويدفع مياهه في بحر ازوف؛ والآخر يُعرف باسم « بوغ » ويأتي من ديار ياجوج وماجوج الاوربية ( اسكيثية الاوربية ) ويصب في أولبية في فوهة نهر البورستين

(٢) الكلام هنا عن هذه الدويبات المسماة « بنات اليوم » وهي طويئرات لا تعيش الاَّ يوماً واحداً، ومن ذلك اسمها العربي الذي وضعناهُ . وهي تُعرف في ديار العراق باسماء شتى كالچليلو او الاكليلية، والخيتعور، والزُخْرُف، والبعصوصة ونحوها . واسمهـا بالفرنسوية : ( Éphémère )، وبلسان العلم (Ephemeris) وتوجد في جميع الاصقاع التي تكثر فيها الغدران والبطائح والمستنقعات

التي تنشأ منها الساعات العشر او الاثنتا عشرة وهي مدة عمره الطويل

ما عاش هذه الساعات الطوال الاَّ وقد حنكته التجارب ، وعجم عود الزمان ، وغمز قناته ، فقام بين اخوته واخواته خطيباً مصقعاً ، ذرب اللسان ، بليل الريق ، جزل الخطاب ، قوي العارضة ، تخلب أقواله كل سامع . كيف لا يكون كذلك وقد رَكِبَ من الأمور اكتافها ، واقتعد ظهور المكاره ، وحلب الدهر اشطره ، فأصبح طويل الفكرة ، دائم التدبُّر ، ولذا لا تعجب اذا قلتُ لك انهُ غدا لقمان أوانهِ ، وسحبان زمانهِ ، وسليمان عصره ، وقسّ دهرهِ

أجل انهُ لكذلك لاسيما وقد رأى أنداده ولِدَاتهِ ، قد اخترمتهم المنية عند الظهر ، كأنهم خلائق نُحت نجاة سعيدةً من مساوئ الشيخوخة ، التي كانت تحلُّ بهم لو كانوا بلغوا مداها . ولهذا يحقّ لهذا الشيخ الجليل ، لقمان هذه الدوبيات ان يقصّ على احفاده الاخبار المتواترة التي تروي أموراً كلها عجائب وغرائب لم تدر في خلد أصحاب التواريخ المدوَّنة

وعليهِ ، جمعهم ذات يوم ، وهم كلهم أقوام من جنسهِ ، في مقتبل الشباب ، وغضّ الأهاب ، عمرهم ساعة . ثم قال لهم : هلمّ ايها الشبان اسمعوا وعُوا . . . وما قال هذه الكلمات الاَّ ورأيتهم جميعهم آذاناً صاغية ، وقلوباً واعية . ثم أخذ يتكلم وهو يتحدَّر تحدّر السيل ، ويتدفق تدفق اليعبوب ، كأنَّ الله فجَّر ينابيع الحكمة على لسانهِ ، وأراه الغيب من وراء ستر رقيق شفاف . اما الجلاَّس فكانوا يطربون بغُرَر تلك الأقوال ،

ويثملون بارتشاف سلاف الحِكم التي تزري بالدرر الغوال . وكل ما كان يرويهِ عليهم كانوا يقضون منهُ العجب العجاب ، ويطيبون لهُ نفساً ، ويودّون ان يسمعوه مدى الأحقاب

على ان سماعهم اياه الى المساء ليس بقليل ؛ فهو عندهم بمنزلة اعوامٍ ، بل قرون . إذ الغروب عندهم من قبيل عصر من أعظم عصور الخلق اذا بلغوه

ولنفرض الآن ، ان هذه الدويبة الذكر — لقمان ذاك الاوان على نهر هيبانيس — أزمع على الرحيل ومغادرة هـذه الدنيا الدنية ، لأنهُ أحسّ بدنو أجله لميل شمس النهار الى المغيب . فجمع جميع أولاده وأحفاده من صلبهِ ولفيف اصدقائهِ ومعارفهِ ليودّعهم وداع الفراق ، ويوصيهم وصاياه الاخيرة . فاحتشد جميعهم تحت ظل فُطرَةٍ ظليل . فأخذ الشيخ الجليل المحتضر يقول :

« يا اصدقائي ووطنيَّ ، اني أشعر بأن لا بدَّ من نهاية هذه الحياة ، لأنهُ كان لها بداءة . ولقد حان أجلي ، وقربت ساعة وفاتي ، ولست متأسّفاً على زوال أيامي ، وتصرُّم حبل حياتي . فلقد أصبح طول عمري عبئاً ثقيلاً على كاهلي ، ولم يبقَ لي في هذه الدنيا ما يُطيّب لي فيها مرارة سُؤر رمقي . هذه الفتن والمحن وضروب النكبات أتلفت ديباري ، وكثرة البلايا والرزايا أمالت قناتي ، وتتالي الأمراض والادواء التي تحلّ بقومنا استفرغت قواي ، وتعاقب المصائب والنوائب التي ألمّت بأهل بيتي استنفد الذماء الباقي من حياتي . كل هذا ، اذا ضُمَّ الى ما رأيتهُ واختبرتهُ بنفسي

في حياتي هذه الطويلة ، تتحققون ان الزمان علمني هـذه الحقيقة الثابتة الاركان وهي : ليس من سعادة قارَّة دائمة على هذه الارض ، ولا سيما اذا كانت تلك السعادة منوطة بأمور ليست بأيدينا ولا بارادتنا ، بل بمشيئة عنايةٍ غامضة . فلقد رأيتُ طائفة من أقوامنا ماتوا عند هبوب ريح صرصر ؛ وشاهدت جماعةً من شبيبتنا المتهوّرة قد غرقت في طحمة سيل جارف ؛ وكنت يوماً ممن حضر فرأى مطراً مدراراً أحدث طوفاناً عرمرماً اكتسح زرافاتٍ زرافاتٍ من ابناء وطننا العزيز ؛ ولقد تحطمت ديارنا ذات يومٍ كل محطَّم بعد ان سقط بَرَد هائل القدر أمات ربواتٍ وربواتٍ من اخوتنا المظلومين . وزيدوا على ذلك ان قوماً منَّا اذا رأوا سحابةً سوداء قالوا في أنفسهم : ان هذه الاَّ سحابة قوم عاد

« اني لقد عشت في عصور الخلق الأولى ، في زمان الفطحل ، وحادثتُ جماعةً عظيمة من الدوبيات كنَّ أطول مني قامة ؛ بل كنتُ بجانبهنَّ كأحد بني ياجوج وماجوج ، بجنب واحدٍ من بني عُوْج كنَّ ذوات بنيةٍ أقوى من بنيتي ، وذوات حكمةٍ تزري بحكمة سليمان . ولهذا اعلموا ، يا سادتي ، ان كل ما أنطق وأتفوَّه بهِ ، لا يشوبهُ ريب ، ولا يخامره شك . وليس في نيتي ان اخدع واحداً منكم

« يا قومي ، صدّقوا كل ما أقوله لكم ، وتأكَّدوا ان الشمس التي ترونها الآن متسترة ورآء المياه ، ويخيَّل الينا انها غير بعيدة عن الأرض ، رأيتها سابقاً قد تكبّدت السماء ، قاذفةً سهام أشعتها مصوّبةً اياها علينا ؛ وكانت الارض في ذلك العهد العهيد سابحةً في سبحات وجه الله ، اكثر

مما هي عليهِ في هذه العصور المتأخرة ؛ وكان الهواء أجف من هذا السكاك ، وأحرَّ منهُ ؛ وكان اجدادنا الفضلاء أصحاب جدٍّ وكدٍّ وجلَد وقناعة سامية

« يا قومي ، ان حواسّي وان كان قد فلَّ غربها ، وكلَّت شباة ذاكرتي، الاَّ اني اؤكد لكم ان هـذا النجم المتلألئ المجيد ، يتحرَّك ويسير . ولقد رأيتُ بزوغهُ الأول من ورآء قمة هذا الطود الباذخ ، ونشأتُ في الوقت الذي أخذ يرتفع رويداً رويداً على الأفق ، ويخطو بعد ذلك في السماء خطواتِ جبَّارٍ عنيد من أعظم الجبابرة قوةً وحولاً وطولاً وهولاً . ولقد تقدَّم في السماء تقدُّماً حثيثاً عجيباً مدة أعصار متطاولة متتالية ، وهو يقذف حرارةً غريبة ، وأنواراً عجيبة ، لا يمكنكم أبداً ان تتصوروها ، ان لم تروها بعيونكم ؛ بل ما كان يمكنكم ان تحتملوا أمريهِ الأمرين

« اما الآن ، وقد قارب الأُفول ، وان يوارى في قبور المياه ، أرى ان أفراد هـذه الامة كلها سائرة ، بل صائرة الى الزوال والاضمحلال الوشيك ، وتسجَّى هذه الدنيا الغرور بأكفان الظلمات ، في أقلّ من مائة من الدقائق

« واحرَباه ! يا أصدقائي ، واحرَباه ! ما أعظم ما كان غروري في سابق المهد ، في عنفوان شبابي ، وغضاضة اهابي ! كنتُ إخالني من الخالدين المقيمين في هذه الارض ! وان ليس من شيءٍ في هذه الدنيا يستطيع ان يتغلّب عليَّ ، ويُفني جواهر بدني ، وعناصره المتركب منها ؛ وكنت اذا نظرت الى مساكني التي كنت قد نحتّها في الصلصال

المَلك ، كنت أقول : وهل يموت مَن يقيم في مثل هذه المباني المحكمة البنيان ، التي لم يشيّد مثلها سليمان ، ولا الانس ولا الجان ! فما أشدّ ما كانت ثقتي بنفسي ، وطمعي بهذه الحياة ، وبقوة أعضائي ، وبتراكيب مفاصلي ومواصلي ، وقوة أجنحتي ! ! ! كل ذلك أصبح كأن لم يكن ، لقد عشتُ للطبيعة والمجد ، لقد عشت لنفسي ولمنفعتي . لقد عشت ولم استفد فائدةً تذكر لآخرتي ، لقد عشت في دار الفرار ولم اتخذ عملاً فيهِ الثواب لدار القرار . ولقد أحسن مَن قال :

يا صاحبي ان الزما  نَ كما علمت وما علمتُهْ
يُفني الذي جمَّعتُهُ  بيدي ويحصد ما زرعتُهْ
ويخون مَن صافيتُهُ  عمداً ويعشق مَن مقتُهْ
وجهلتُهُ  فحمدتهُ  وذممتهُ  لمَّا عرفتُهْ
ولطالما  عاتبتهُ  حتى على رغمٍ تركتُهْ
بغداد  سائمنا

## ﴿ المودّة ﴾

المودة بين الأخيار سريع اتصالها ، بطيء انقطاعها . ومثَلُ ذلك كمثَل كوب الذهب ، هو بطيء الانكسار ، هيّن الاصلاح . والمودّة بين الاشرار سريع انقطاعها ، بطيء اتصالها ، كالكوز من الفخار يكسره أدنى عبث ، ثم لا وصل له ابداً . والكريم يمنح مودّته عن لقيةٍ واحدة ، او معرفة يوم ؛ واللئيم لا يصلُ احداً الا عن رغبة او رهبة  ( ابن المقفّع )